

جامعة القاهرة

كلية دار العلوم

قسم الفلسفة الإسلامية

الاتجاهات الفكرية حول التصوف في القرن التاسع الهجري

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

إشراف

الأستاذ الدكتور حامد طاهر

أستاذ الفلسفة الإسلامية ونائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق

إعداد الطالب

مدحت عبد الماجد قوسي

١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م

شكر وتقدير

أتقدم بآيات الشكر والتقدير لوالدي العظيم الذي لم تنقطع إنعاماته وفيوضاته عليّ أستاذي الدكتور حسن الشافعي أستاذ الحقيقة والطريقة، بقية السلف الصالح، عرفاناً بجهوده وإرشاداته القيّمة.

وخالص محبتي وشكري لأستاذي الكبير الدكتور حامد طاهر، أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، العالم المدقق والمتصوف المُعلّم والشاعر المرهف الذي استفدت منه دقة العالم وتواضع المربي ورصانة الفكر الإسلامي الحقيقي، وشملي برعاية الأب الحنون، وتفضل عليّ مشكوراً بقبول الإشراف على هذا البحث، رغم ضيق الفترة الزمنية ومشاغله الكثيرة، فجزاه الله عني وعن العلم وطلبته خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص محبتي لوالدي وأستاذي الدكتور عبدالحميد مذكور أديب الفلاسفة والصوفية، الذي شملي برعايته الأبوية وما زال، ولتشريفه لي بالموافقة على مناقشة هذا البحث المتواضع، وخالص محبتي لأستاذي الدكتور عصمت نصار الذي تفضل مشكوراً بالموافقة على المشاركة في مناقشة هذا البحث.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله عز وجل حمداً تتقاصر عنه تصورات الأوهام، وأشكره شكراً تتخلف عنه تصرفات الأقدام على تعاقب الليالي والأيام، وأصلي على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد الأولياء، صلاة تليق بجلال الله وعلمه وقيومته، وعلى أمهات المؤمنين وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء، سائلاً له صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة والمقام المحمود.

وبعد، فإن سعي الإنسان متواصل للبحث عما يرتفع به عن الأرض وضرورتها ويتخلص به من علائق المادة وتحكماتها ويرتقي به نحو معارج الكمال، مرتسماً في ذلك مبادئ حاول أن تكون له نبراساً، وجاءت الشرائع السماوية لتضع الطريق اليسير والنافع لكي يصل الإنسان الأرض بالسماء ويفوز بالجنة ورضوان الله.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قرآناً يمشي على الأرض بلغ الكمال في كل أمر، وعانى أعظم صنوف المشاق التي يمكن أن تعرض للإنسان في هذه الحياة، وترسم الصحابة رضي الله عنهم خطاه، فكانوا كالطبيب للمرضى والإمام العدل للأمة الفوضى، رضي الله عنهم، ونصح صلى الله عليه وسلم الأمة أن نعص على سنتهم بالنواجذ؛ ولو وزن إيمان أبي بكر رضي الله عنه بإيمان أهل الأرض لرجح بهم.

وظهر صلحاء كثيرون بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم، تركوا شذرات تعبر عن خلاصة مجاهداتهم وخبرتهم في الطريق إلى الله، مترسمة القرآن والسنة محذرة من البدع، مثل الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) وبشر الحافي (ت: ٢٢٧هـ) والمحاسبي (ت: ٢٤٣هـ) والبسطامي (ت: ٢٦١هـ) والجنيدي (ت: ٢٩٧هـ) وأبي علي الروذباري (٣٢٢هـ).

ويعد ترجمة الفلسفة اليونانية في عصر المأمون (ت: ٢١٨هـ)، حاول بعض الصلحاء تطويعها لخدمة العقيدة والتصوف فتسربت بعض الألفاظ ظن أصحابها أن بها يتحقق الوصول إلى الحق؛ ما دعا متصوفة آخرين إلى الوقوف بشدة إزاءها وإزاء أصحابها، ولكن يبدو أن الأفكار لا تموت بموت أصحابها بل إنها تعيش وتتعمق بموتهم، فقتل أشخاص تفوهوا بألفاظ تبدو خارجة لغيرهم عن الشريعة وعاشت هي، إلى أن تعمق المدافعون، وظهر ما عرف بالتصوف الفلسفي.

أهمية البحث:

من الصعب على الباحث أن ينكر تغلغل التصوف في قطاعات كبيرة من المسلمين بسلبياته التراكمية، كما يراها البعض، وإيجابياته وطرقه ربما حتى الآن، ولذا فإن السعي إلى تخليصه من الشوائب الكثيرة التي علفت به على امتداد قرون طويلة، كفيل بأن يعود بالمسلمين إلى روح الإسلام القائمة على الحب والأخوة، مرتكزة على العبادة الصحيحة والجهاد في الوقت نفسه، كما كان في طور النشأة؛ وقد آل الآن إلى ما نعرف وصار مختلفاً عن عصر الزهاد الأوائل.

وقد كانت المشكلة الرئيسية في القرن التاسع الهجري، والتي أثارت علماء كثيرين، هي قضية التصوف الفلسفي أو المتأخر أو المختلط، ومحاولة دمجه بالتصوف السني أو حتى عدم التسليم

بوجوده أصلاً لدى المؤيدين واعتبار التصوف اتجاهاً واحداً منذ نشأته، ثم كانت المشكلة الأكبر محاولة مؤيديه تقريبه للعامة وأحياناً تدريسه في حلقات المساجد أو داخل المنازل في مجالس السماع، وهو ما أثار علماء آخرين فتصدوا لذلك، وثار ما يشبه المعارك الفكرية والتي تطورت أحياناً كثيرة إلى معارك دموية.

وربما لم يلق اتجاه - بعد الاتجاه المشائي - في الفكر الإسلامي نقداً وهجومًا، مثلما لقيه الاتجاه الصوفي الفلسفي، بعد أن ابتعد عن مرحلة الزهاد الاوائل، والتي وضحت في "الرعاية" و"التوهم" عند المحاسبي (ت: ٢٤٣هـ) ورسائل الجنيد (ت: ٢٩٧هـ / ٩١٠م) وقوت القلوب لأبي طالب المكي (ت: ٣٨٦هـ / ٩٩٦م)، والقشيري (ت: ٤٦٥هـ) في الرسالة، واعتراه ما اعترى العلوم الأخرى من تأثر بالعلوم الفلسفية، وبدأت الرمزية تشق طريقها بعمق في التصوف، وعرف الشطح، وإن ظل الاتجاه الأول قائماً في الإحياء للإمام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ / ١١١١م)، والعارف للسهروردي (ت: ٦٣٢هـ)، وعبدالمعطي الإسكندري (ت: ٦٣٨هـ) شارح الرعاية ومنازل السائرين والرسالة، والمعاصر لابن الفارض (ت: ٦٣٢هـ)، ولابن عربي (ت: ٦٣٨هـ).

ومن الفقهاء الذين واجهوا التصوف المتأخر بشدة العلاء البخاري (ت: ٨٤١هـ) تلميذ السعد التفتازاني، والذي ألف "فاضة الملحدين وناصحة الموحدين"، وبرهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) الذي ألف "مصرع التصوف" وذكر فيه آراء كثير من العلماء، ورد عليه السيوطي (ت: ٩١١هـ) فيما يبدو بكتاب "تنبيه الغبي في تخطئة ابن عربي" وأورد آراء لمؤيدي ابن عربي، وكان أشد صراحة في الرد عليه الحصكفي (مات بعد ٨٧٤هـ) في كتابه "ترياق الأفاعي في الرد على الخارج البقاعي".

وصنف السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) كتابه الكبير "القول المنبئ في ترجمة ابن عربي" عرض فيه سرداً لأقوال العلماء الذين انتقدوا ابن عربي بدءاً من عصره حتى عصر السخاوي، مع فصول أخرى حول انتشار كتبه والتأويل، كما رد الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ) على الفقيه ابن الخياط (ت: ٨١١هـ) أو (٨٠١هـ) في فتواه حول ابن عربي وكتبه.

وقد رأيت أن النقد اشتد على هذا الاتجاه بعد الشيخ الأكبر ابن عربي وظهور شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) ومدرسته وتحزب العلماء في القرنين الثامن والتاسع الهجريين تجاه التصوف الفلسفي، مع وجود علماء كبار في هذه الفترة.

وانطلاقاً - كما قال العارف بالله الشيخ زروق (ت: ٨٩٩هـ) من أن معارضة الأولياء وأهل طريق التصوف عموماً شيء طبيعي؛ ونظراً كذلك لهذه المعارك الفكرية المتبادلة والتي شملت مجالات نقد التصوف الفلسفي بجانبه الإيجابي والسلبي لدى الاتجاهات الكبرى في القرن التاسع الهجري/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ويمكن أن نجعلها تحت اتجاهات ثلاثة كبرى، هي السني الرفض والمؤيد المدافع والوسطي، والمعيار الذي يمكن أن يكون رسمياً لا حداً للاتجاه السني الرفض للتصوف الفلسفي، في أهم قضايا الخلاف في الطريق الصوفي وأهمها المجاهدات والكرامات، والآراء الصوفية المؤسسة على الكشف مثل التوحيد ووحدة الوجود وقضية الخلق والإنسان الكامل والنبوة والولاية والشطح في قضايا التصوف وعبارات المتصوفة المتقدمين، هو رفض قضايا وآراء التصوف الفلسفي، كما رفض آراء ابن عربي وقال بإحراق كتبه وتكفيره أو التوقف.

أما الاتجاه المؤيد فيقبل الكل ويؤول الشطح ويعده زيادة في العلم بالله عز وجل ويدافع عن ابن عربي ويقبل كثيرا من آرائه ويعظمه. وأما الاتجاه الوسطي بينهما فيؤيد قضايا الطريق الصوفي نافيا المغالاة كما يؤيد مبدأ الكرامات ويقيد القضايا والآراء الصوفية ويرفض الشطح الصوفي، ويرفض آراء ابن عربي ويؤيد إحراق كتبه دون التعرض لشخص ابن عربي أو عدم تكفيره. وأما الاتجاه الأخير وهو رفض الكل والتصوف السني فلا يوجد في هذا العصر وربما لم يوجد قبل؛ إذ كان معظم من حاربوا التصوف الفلسفي هم من متصوفة أهل السنة على طريقة الجنيد والغزالي.

ونود أن نشير إلى أن السيوطي صنف موقف العلماء من ابن عربي، وهو مناصر للتصوف الفلسفي والذي دار حوله معظم الانتقادات قديماً وحديثاً، وذكر ستة اتجاهات، لكن يمكن أن تصنف تحت الثلاثة الكبار، كما قال أحد العلماء في اختلاف الناس في ابن عربي إلى مكفر، ومقطب، ومتوقف وهو الأولى.

أهداف البحث:

ولقد تغيا البحث استجلاء حقيقة الخلاف الفكري في القرن التاسع الهجري، رفضاً أو تأييداً أو توسطاً، حول التصوف خصوصاً المتأخر وقضاياها، وما دفع إليه وما انتهى إليه من نتائج، خاصة وأن آثاره لا تزال موجودة حتى وقتنا الحاضر، ولا بد من محاولة البيان والتوضيح والبحث عن حلول لهذه المشكلات المتوارثة.

كما أن الأمة الإسلامية، وهي في مرحلة بعث جديد وقد نفضت عن معدنها غبار ماضٍ بغيبض ترك بعض آثاره إلى وقتنا هذا، فهي في أشد الحاجة إلى أن تتسلح بزاد الإيمان، وقوة اليقين، ولباس التقوى، وروح الإسلام، وعزيمة الجهاد، وأحد الروافد لذلك التصوف النقي، فهو الإيمان في أسمى إشراقاته، والخلق في أرفع مثله، والعلم في أصفى موارده، والجهاد في أعلى ذراه.

الأسئلة البحثية:

يحاول هذا البحث الإجابة عن بعض الأسئلة، والدور الذي لعبته في إنكفاء الخلاف بين المفكرين المسلمين إزاء التصوف المتأخر في القرن التاسع الهجري، ويمكن أن نلخصها في الآتي:

- ١ - ما دور الواقع السياسي والفكري في الخلاف المحتدم بين الاتجاهات حول التصوف؟
- ٢ - ما حقيقة مسائل الخلاف حول التصوف، وهل جاءت تطورا لآراء المتقدمين؟
- ٣ - ما الظروف التي دفعت إلى القول بهذه الآراء، وهل هي ظروف جديدة اجتماعية ثقافية؟
- ٤ - هل نقبل التأويل في هذه المسائل أو لا؟
- ٥ - ما السمات الإيجابية في هذه الآراء؟
- ٦ - ما السمات السلبية في هذه الآراء، وكيف يمكن تصويبها؟
- ٧ - ما مدى قربها أو بعدها من الكتاب والسنة؟
- ٨ - ما أثر هذه الآراء في المجتمع قديماً وحديثاً؟

الدراسات السابقة:

وقد جهدت أن أجد دراسة تتناول الاتجاهات الفكرية حول التصوف المتأخر، فلم أجد، نعم توجد دراسات حول نقد التصوف في العصر المملوكي لكنها تتناولها من وجهة اجتماعية وتبدو مدفوعة بآراء تريد تطبيقها على التصوف وقضاياها، وهو ما يخل بأهم شروط البحث العلمي وهو الموضوعية.

وقد درست بعض شخصيات في القرن التاسع وحققت كتب لها، مثل:

- ١ - كتاب "التصوف لدى فلاسفة المغرب، ابن خلدون أنموذجاً"، مأخوذ عن رسالة دكتوراه للدكتور حسين جودة بالعراق وهو كتاب قيم، وحقق كتاب ابن خلدون "شفاء السائل وتهذيب المسائل" غير مرة، بالإضافة إلى فصل التصوف في مقدمة تاريخه.
- ٢ - حقق كتاب "فاضة الملحدين وناصحة الموحدين" للعلاء البخاري مرتين، واحدة بالسعودية في جامعة أم القرى، وكتب الباحث دراسة جيدة حوله وإن كان له ميل "سلفي محدث" واضح، ثم حقق مرة أخرى في كلية دار العلوم على أنه كتاب للتفتازاني تحت عنوان الرد على أباطيل الفصوص، وهو خطأ واضح إذ لا أسلوب المؤلف يرشح أن يكون للتفتازاني، كما أنه ليس موضوعياً إذ ذكر المصنف اسم الكتاب في خطبة المتن.

كما أن المصادر التاريخية نسبته بوضوح للعلاء البخاري، والذي كانت منزلته العلمية والسياسية في الدولة المملوكية متقدمة حتى على ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، وربما أتى الالتباس من صفحة العنوان وتلمذ العلاء البخاري على السعد التفتازاني، ولكن التحقيق والدراسة جاءا عكس البحث الأول فنياً.

- ٣ - كما حقق جزء من كتاب السخاوي الضخم "القول المنبني في ترجمة ابن عربي" في السعودية أيضاً، وهو الجزء الخاص بمنقدي ابن عربي، ولكنها جاءت خاطفة وسريعة، هذه هي الدراسات القريبة جداً من موضوع البحث والتي سيتم إن شاء الله الاستفادة منها.

خطة الدراسة:

لقد اعتمدت بعد الباب الأول، في دراسة كل اتجاه على ثلاثة محاور رئيسة هي: المصطلح، والقضايا، والرجال، وباعتبار أن المصطلح والقضايا أبرز من الانتقادات حول رجال كل اتجاه، والتي غالباً ما تكون مدفوعة بمواقف مسبقة من العالم أو اتجاهه الفكري أو بينته المحلية أو طبيعة الواقع السياسي الذي يعيشه؛ فقد جعلت قضية المصطلح وأشهر ما تداوله علماء الاتجاه في موقفهم تجاه التصوف، تمهيداً في كل باب من الأبواب الثلاثة، وأدمجت بعض الانتقادات حول الرجال مع قضايا التصوف لدى كل اتجاه، اختصاراً أرجو ألا يكون مخلًا.

وسأقدم في أكثر قضايا البحث نبذاً حول أصولها وتطورها وما آلت إليه ثم أُلج إلى تفصيل آراء الاتجاه حولها بتفصيل حسب ما تتطلبه طبيعة القضية.

أما أقسام الدراسة فقد جاءت في أربعة أبواب، بعد هذه المقدمة، وتتلوها خاتمة:

الباب الأول: بعنوان "الواقع الصوفي في القرن التاسع الهجري"، في ثلاثة فصول، الأول بعنوان الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية في القرن التاسع الهجري، ويأتي الفصل الثاني تحت عنوان "التصوف والعلاقات المتشابهة في القرن التاسع الهجري"، مقداً له بتمهيد... والفصل الثالث تحت

عنوان "أشهر الطرق الصوفية في القرن التاسع الهجري" مقدما بمدخل ثم قضية التصوف بين المشايخ والكتب، ثم سرد نبذة تاريخية حول نشأة الطرق.

وقد خصص البحث الأبواب الثلاثة التالية لدراسة قضايا التصوف المتأخر والتي دار حولها نقاش وخلاف.. ففي الباب الثاني يعرض البحث لموقف الاتجاه السني الراض للتصوف المتأخر، في فصلين:

الفصل الأول: "فيما يتعلق بالطريق الصوفي والكرامات"، يسبقه تمهيد حول المصطلح المتداول لدى الاتجاه وموقفهم النقدي لبعضها. والفصل الثاني فيما يتعلق بالقضايا والأفكار والشطح.

وفي الباب الثالث والذي جاء بعنوان "الاتجاه المؤيد للتصوف المتأخر" في فصلين: الفصل الأول - في الدفاع عن مبادئ الطريق الصوفي والتسليم بالكرامات. الفصل الثاني - في الرد على أهم القضايا والأفكار وقبول الشطح.

وفي الباب الرابع والذي جاء تحت عنوان "الاتجاه الوسطي بين الرفض والتأييد" فصلان: الفصل الأول - التسليم بخطوات الطريق الصوفي وتأييد مبدأ الكرامات.

الفصل الثاني - التوقف في أهم القضايا والأفكار ورفض الشطح.

ثم نختم بملخص وبعض النتائج، تتناول بيان أن اتفاق الجميع كان حول العناية بالتصوف السني في الاتجاهات الثلاثة وتقريرهم لرجالاته، وبيان أن الجهد العلمي كان منصبا نحو محاولة الارتقاء بالنفس الإنسانية، ورعاية عقائد الجمهور، كما أن هناك ما يشبه عدم اتحاد محل النزاع خاصة بين الاتجاهين الراض والمؤيد، وثمة إزمات متبادلة.

منهم البحث:

حاولت في التوثيق والتعليق أو العرض والمعالجة، الجمع بين دراستين ومنهجين، ففي العرض سعيت للجمع بين الدراستين الطولية والعرضية للإمام بآراء كل اتجاه قدر المستطاع، وتتبع آراء الصوفية وأصحاب الاتجاهات إزاء التصوف المتأخر، من فقهاء ومحدثين ومتكلمين ومفسرين ومؤرخين وأصوليين وفلاسفة وأدباء وشعراء وبيان سياقاتها الزمنية والمكانية، خلال القرن التاسع الهجري، والجمع بين السرد والمنهج النقدي، معولاً على التحليل والاستشهاد بالنصوص في السرد وعلى التسوية في النقد.

وأما عن المعالجة فقد حاولت الجمع بين المنهج التاريخي والمنهج المقارن، إذ العلاقة بينهما وثيقة وتكاملية ومناسبة لطبيعة البحث، كما أنني حاولت من خلالهما تتبع مواطن الأصالة والابتكار في الآراء لدى كل اتجاه.

صعوبات البحث:

وقد واجهتني بعض الصعوبات في جمع المادة العلمية خاصة للاتجاه السني؛ إذ إن كتب معظم أعلامه لا تزال مخطوطة، والحصول عليها عسير جدا لوجود معظمها في اليمن، وقد توصلت لبعضها في دبي، ويشترك مع الاتجاه المؤيد وإن كان بنسبة أقل، كما أن قلة الدراسات التي تناولت هذا القرن كان عاملا معوقا بعض الشيء.

ومن الصعوبات البارزة أن الصراع بين المعارضين والمؤيدين للتصوف تأثر تأثيراً كبيراً بالواقع السياسي في القرن التاسع الهجري، الأمر الذي استغله كل فريق أسوأ استغلالاً بالفريق الآخر، كما ساعد أيضاً على ذبوع آرائه تبعاً لذلك.

ومن الطبيعة الذاتية للبحث العلمي أن يظل دائماً قابلاً للتغيير، ومهما حاول الباحث سيظل النقص ملاحقاً له كالظل، إلا أن الباحث حاول بذل أقصى ما يستطيع، ويبقى كل ذلك دعوى قد تؤكد الصفحات أو تنفيه، والأمر إلى أساتذتي الأجلاء.

ولأهل الفضل عليّ شكر واجب، وعلى رأسهم أستاذنا الدكتور سيد رزق الحجر رئيس القسم، وأستاذنا الدكتور محمد الجليند، وأستاذنا الدكتور عبدالراضي محمد، كما لا أنسى جهود الدكتور أحمد بلبولة والدكتور عمر خطاب، والأستاذ محمد وافي المعيد بالقسم، وأخي الدكتور جمال عبدالناصر، وأستاذنا الدكتور يوسف الصديقي عميد كلية الشريعة بجامعة قطر، وأستاذنا الدكتور محمد الجوادي، وأخي وصديقي الإعلامي أحمد عبدالرؤوف الذي قام مشكوراً بترجمة الملخص الإنجليزي، جزاهم الله عني خيراً في الدنيا والآخرة.

وبعد، فما كان في هذا البحث من صواب فمن توفيق الله وحده، ثم لتوجيهات أساتذتي - حفظهم الله - المشرفين، والديّ وأستاذي الدكتور حامد طاهر، والدكتور حسن الشافعي (المشرف السابق)، وأستاذي الدكتور محمد الشرقاوي (المشرف الأسبق)، وأما ما فيه من خلل أو زلل فمن بضاعة الباحث المزجاة، والغفلة والنسيان.

والحمد لله رب العالمين

*** **

الباب الأول

الواقع الصوفي في القرن التاسع الهجري

مدخل...

الفصل الأول:

أحوال العصر السياسية والاجتماعية والفكرية

الفصل الثاني:

التصوف والعلاقات المتشابكة في القرن التاسع الهجري

الفصل الثالث:

أشهر الطرق الصوفية في القرن التاسع الهجري

مدخل:

افتتح القرن التاسع الهجري (نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلادي) وخريطة العالم الإسلامي تتقلب بين دول تزول ودول تتوحد دعائمها وأخرى تنتظر مصيراً مجهولاً نتيجة الصراعات الداخلية، فقد بدأ هذا القرن والدولة المملوكية الجركسية تحكم مصر والشام والحجاز وسلطانها الملك الظاهر أبو سعيد برقوق، والدولة العثمانية وسلطانها أبو يزيد بن عثمان، ودولة بني رسول باليمن من نواحي تهامة وسلطانها الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل بن المجاهد، وسلطان اليمن من نواحي الجبال الإمام الزيدي الحسني علي بن صلاح.

وكان سلطان المغرب الأدنى أبا فارس عبد العزيز الحفصي، وسلطان المغرب الأوسط المريني، وسلطان المغرب الأقصى ابن الأحمر، وصاحب البلاد الشرقية تيمور كوركان المعروف بالملك، وصاحب بغداد أحمد بن أويس، وأمير مكة حسن بن عجلان ابن رميثة الحسني، وأمير المدينة ثابت بن نعير، والخليفة العباسي أبا عبد الله محمد المتوكل على الله ابن المعتض بالله ويدعى أمير المؤمنين ونازعه في هذا اللقب الإمام الزيدي وبعض ملوك المغرب وصاحب اليمن^(١).

ونعرض في هذا الباب ثلاثة فصول، يتناول الفصل الأول الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية، ويأتي الفصل الثاني ليتناول الأوضاع الصوفية وعلاقتها في القرن التاسع الهجري، ثم يعرض الفصل الثالث نبذة مختصرة عن الطرق الصوفية الشهيرة في القرن التاسع، استمراراً أو نشأة، والمسيرة الطرقية في القرن التاسع الهجري، ثم خريطة لآراء الفكرية حول التصوف في هذا القرن؛ لنثبت بذلك أن هذا الواقع قد صبغ الصراع الفكري بين منتقدي التصوف ومؤيديه أو من توسط بين الفريقين.

(١) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ٣٦/٢، تحقيق: د. حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م، وابن عريشاه (ت: ٨٥٤هـ): عجائب المقدور في أخبار تيمور / ٢ - ٥، كلكتا، ١٨١٧م، وانظر ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٩/ ص ١١، ٤٥٧، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

الفصل الأول

أحوال العصر السياسية والاجتماعية والفكرية

الأحوال السياسية

دولة بني رسول في اليمن

دولة المماليك الجراكسة بمصر والشام

فتح القسطنطينية

نهاية دولة المسلمين بالأندلس

الحالة الاجتماعية

الضرائب وتفشي الرشوة

كثرة الموالد الدينية

الحالة الفكرية

انتشار المدارس

السلطين وتعظيم الشريعة والعلماء

المرأة والحركة العلمية

الانحرافات الفكرية

مرصد ألوغ بك

الأحوال السياسية:

ارتبطت الحركة الصوفية في القرن التاسع الهجري بالأحوال السياسية وتقلباتها في دولتي بني رسول في اليمن ودولة المماليك الجراكسة في مصر والشام، كما كان ارتباطها أشد قوة في الدولة العثمانية، وأما الأندلس فكانت في صراعها الأخير، والمغرب الأقصى يعيش صراعات داخلية عازلا نفسه عن امتداده بالأندلس، وسنعرض لقطات حول الواقع السياسي في كل منها...

أولاً - دولة بني رسول في اليمن:

بدأ القرن التاسع وانقضى ودولة بني رسول تحكم اليمن، إذ تقلص حكم الأيوبيين بعدما استتاب الملك المسعود الأيوبي (ت: ٦٢٦هـ على الأرجح)^(١) نور الدين عمر بن علي بن رسول على اليمن كله^(٢)، وحكم بنو رسول اليمن وأقاموا الدولة الرسولية التي امتد نفوذها إلى مكة، بل الشام أيضا كما يقول ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ)، وكان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي الرسولي أول حكامها (٦٢٦هـ - ٦٤٧هـ)^(٣)، ووقع نزاع مع الملك الكامل حول مكة ودانت له مكة^(٤)، كما كانت علاقة ابن أخيه أبوبكر بن الحسن الذي تولى مع مصر كانت متوترة^(٥). وتولى الملك المؤيد واستمر حتى توفي سنة ٧٢١هـ، وكان حافظا للعلوم مشاركا فيها^(٦).

ولم تكن الأمور مستقرة، فقد كانت دولة بني رسول تعاني أمراض الدولة المملوكية في مصر، وكذلك العراقيين العربي والعجمي، من الانقلابات والدسائس وسوء الإدارة، ففي جمادى الأولى سنة ٨٣١هـ خلع الأشرف إسماعيل بن الناصر أحمد صاحب اليمن من الملك، بسبب التقصير في مراتب الجند، واستقرت السلطنة ليحيى بن الناصر وحبس الأشرف إسماعيل في الموضع الذي كان فيه يحيى^(٧).

كما عانى العراق العربي مثل ذلك، فقد خرج ظاهر بن أحمد بن أويس في سنة ٨٠٥هـ على أبيه وحاربه وكسر جمعه وأطاعه العسكر، ففرَّ أحمد إلى الحلة ثم استنجد أحمد بقرا يوسف من تبريز فأعانه فاجتمعا على حرب ظاهر فانهمز^(٨).

ولم يكن العراق العجمي بمنأى عن مثل هذه الأحداث، ففي سنة ٨٥٣هـ خرج عبداللطيف بن ألوغ بك بن القآن معين الدين شاه رخ عن طاعة والده وتقابلا وظن الوالد أن ابنه لا يثبت لقتاله إذا تواجهها لكنه انهزم، ثم دخل سمرقند، وظفر ابنه بأخيه فقتله في حضرته فشق عليه ذلك، فاستأذن في الحج، ثم أشار بعض الأمراء على عبداللطيف بقتل أبيه، فقتله، ثم قتل هو أيضا بعده، وكان

(١) انظر الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ج١/ ص٤٢، تحقيق محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال، مصر، ١٣٢٩هـ / ١٩١١م.

(٢) انظر السابق ج١/ ٤٠ - ٤١.

(٣) انظر ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ): عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي/ ص٢ - ٥، ص١١ - ١٣، المطبعة المصرية، ١٣٠٩هـ، مصر، بإشراف الشيخ حسن أحمد الرشيد الكتبي، وانظر العيني (ت: ٨٥٥هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (عصر سلاطين المماليك) ج١/ ص١٧، تحقيق د.محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.

(٤) انظر ابن المقرئ: عنوان الشرف الوافي... / ص٥ - ١١.

(٥) ففي سنة ٦٤٩هـ قدم عماء أبوبكر والحسن من مصر فقبض عليهما وأودعهما دار الأدب (السجن)، انظر السابق/ ص١٣ - ٢٥.

(٦) انظر ابن المقرئ: عنوان الشرف الوافي / ص٢٦ - ٣٩.

(٧) انظر ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ج٣/ ٤٠١، "حوادث سنة ٨٣١هـ".

(٨) انظر السابق ج٢/ ٢٣٨.

ألوغ بك حاكماً عالمًا، متقدمًا في العلوم العقلية، وبنى مرصدًا واستقدم له العلماء من سائر الأقطار^(١).

وفي المقابل كانت آسيا الصغرى تعيش عصر قوة العثمانيين، ونجح السلطان محمد الفاتح، في استخلاص القسطنطينية (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) من الصليبيين، وقد استطاع الشيخ آق شمس الدين، أستاذ السلطان محمد الفاتح وأحد كبار الصوفية، أن يقنعه بأنه المقصود بالحديث النبوي: "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"^(٢)، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يومًا، وانتهت بانتصار المسلمين ولم تنجح محاولات استردادها من قبل الصليبيين^(٣). وقد عده بعض الباحثين أحد أهم أحداث القرن التاسع الهجري؛ إذ فتح الطريق لنشر الإسلام في أوروبا^(٤).

وكان حكام بني رسول يبدون اهتمامًا بالعلم والعلماء الأمر الذي أثرى الحركة الفكرية في اليمن سواء في التصنيف أو المناظرات العلمية التي تطورت أحيانًا كثيرة إلى صراعات دامية بين الفقهاء والصوفية، فوجد الملك المجاهد (ت: ٧٦٤هـ) يبني مدرسة في الحرم الشريف، ويجعل لها وقفًا وافرا، ثم يدفن فيها^(٥)، وكان ولده الملك الأفضل العباس من العلم والأدب والفضل بمنزلة^(٦)، وبنى سنة ٧٦٥هـ المدرسة الأفضلية في تعز^(٧)، وامتدح ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ) أحد أبرز المعارضين للتصوف المتأخر ولده الملك الأشرف، إسماعيل بن العباس (الدولة الأشرفية الكبرى)، ووصفه ابن المقرئ بأنه لا يختلف أحد في فضله ولا يأتي الزمان بمثله إلا من نسله^(٨).

كما كان بعض سلاطين دولة بني رسول من العلماء، فيحكي ابن المقرئ أنه في سنة ٧٨١هـ، أن السلطان الملك الأشرف (ت: ٨٠٣هـ) تقدم إلى "سررد" وأقام به أيامًا، وفي ذلك الوقت قدم عليه ابن المقرئ الذي ترضى عليه، وأجازه، وأمره باتباع ركابه^(٩)، وامتدحه بأنه كان قاصدا طريق الحق حسن الطريقة أمينا على الخليفة^(١٠). ويصفه بأنه كان يؤثر العلم والعلماء متفننا في العلوم مشغولا بها.

وامتدحه الخزرجي بأنه كان خير ملك جواداً كريماً هماماً حليماً رحيماً، ولم يكن في ملوك العصر مثله، وأنشأ مدرسة وأوقف عليها وقفًا وجمع لها من نفائس الكتب في كل فن^(١١). ثم ولي ولده السلطان الملك الناصر أحمد (٨٠٣هـ)، ويصفه بأنه "السيف الماضي على أعدائه والوابل الهائل على أوليائه"^(١٢)، وخاض معارك كثيرة في السنة الأولى لحكمه ثبت بها أركان الدولة، وقد كان قائما في إصلاح فاسد البلاد والعباد، وقد تم تأليف كتاب ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ)، وهو أحد المشاركين

(١) انظر ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٩/ ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٢) رواه أحمد في مسنده ج٣١ رقم (١٨٩٥٧)/ ص٢٨٧، والطبراني (ت: ٣٦٠هـ / ٩١٨م): المعجم الكبير ج٢ رقم (١٢١٦)/ ٣٨، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، بعد ١٤١٥هـ، والحاكم (ت: ٤٠٥هـ / ١٠١٤م): المستدرک علی الصحیحین ج٤ رقم (٨٣٠٠)/ ٤٦٨ "صحيح".

(٣) انظر د. الصلابي: الدولة العثمانية.. / ١١٣ - ١١٤، ١١٨، ١٢٠، وفتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح / ٨٧ - ٨٨، ١٢٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ج٢/ ٢٢٥، ٢٢٨، د. علي الصلابي: الدولة العثمانية.. / ٨٧، وفتح القسطنطينية.. / ٨٣، ٩٧.

(٥) انظر السابق/ ص٣٩ - ٦٢.

(٦) انظر ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ): عنوان الشرف الوافي.../ ص٦٢ - ٦٣.

(٧) انظر السابق/ ص٦٥ - ٦٧.

(٨) انظر ابن المقرئ: عنوان الشرف.. / ٨٠ - ٨٢، والخزرجي (ت: ٨١٢هـ): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ٢/ ٣١٧ - ٣١٨.

(٩) انظر ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ): عنوان الشرف الوافي.../ ص٨٦ - ٨٧.

(١٠) انظر السابق/ ص٩٥ - ٩٦.

(١١) انظر ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ): عنوان الشرف الوافي/ ص٩٦، والخزرجي (ت: ٨١٢هـ): العقود اللؤلؤية ج٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(١٢) انظر ابن المقرئ (ت: ٨٣٧هـ): عنوان الشرف الوافي.. / ص٩٦ - ٩٧.

بقوة في مواجهة الاتجاه الصوفي المناصر لابن عربي، سنة ٨٠٤ هـ بمدينة تعز^(١)، في فترة حكم الملك الناصر، فلا نتوقع من المؤلف ميلا إلى نقد.

وقد أشار ابن حجر إلى اجتماعه بابن المقرئ مرتين سنتي ٨٠٠ هـ، ٨٠٦ هـ، وقال عن علاقة ابن المقرئ بالناصر أنه "تالته من الناصر جائحة تارة وإقبال أخرى"^(٢)، ما قد يعني أن موقف الناصر تجاه الصوفية تغير من الموالاتة إلى المعارضة، أو على الأقل توسط بين الطرفين بما يضمن الاستقرار لملكه.

ولكن ابن حجر يصرح في وفيات سنة ٨٢٧ هـ فيقول عن الناصر: "أحمد الملك الناصر بن الملك الأشرف، إسماعيل بن الأفضل، عباس ابن المجاهد علي، صاحب اليمن ... استقر في المملكة بعد أبيه سنة ثلاث وثمانمائة، وجرت له كائنات تقدم ذكر أكثرها، وكان فاجراً جائراً، مات بسبب صاعقة سقطت على حصنه من زجاج، فارتاع من صوتها فتوعك ثم مات في سادس عشر جمادى الآخرة، قال الله تعالى: "ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء"^(٣)، والواضح من كلام ابن حجر أنه مناقض لما ذكره ابن المقرئ، ربما كانت استمالة من ابن المقرئ للحاكم في بداية حكمه.

وكانت علاقة إسماعيل الجبرتي (ت: ٨٠٦ هـ) الذي تولى القضاء، ثم تنازل عنه لابن الرداد (ت: ٨٢١ هـ) قوية بالملك الأشرف (ت: ٨٠٣ هـ)، وقد ذكر ابن حجر أن السلطان الأشرف باليمن قد عظم الجبرتي واعتقده، "وصار أهل زييد يقترحون له كرامات"^(٤)، ما يدل من جهة أخرى على اعتقاد العامة في الصوفية ومبالغتهم في تعظيمهم، وهو نعي فيما يبدو على ضياع العلم الصحيح في أوساط المسلمين آنذاك، وانصراف الناس عن العمل إلى التماس الكرامات.

لقد كان للصوفية قدم راسخة في دولة بني رسول ربما حتى عهد الملك الناصر، الذي توجه إليه الفيروزآبادي، أحد المدافعين عن ابن عربي واتجاهه في اليمن، بكتاب يرد فيه على ابن الخياط واتهامه للصوفية، وقيل إن الناصر تزوج بابنته.

ثانياً - دولة المماليك الجراكسة في مصر والشام:

وقد بدأ أيضاً القرن التاسع الهجري وانتهى والمماليك على حكم مصر والشام والحجاز وبعض الممالك، إذ بدأت دولتا المماليك سنة ٦٤٨ هـ على يد الملك المعز "عز الدين أيبك" واستمر حكمهما إلى سنة ٩٢٣ هـ، وكانت القاهرة عاصمة ملكهم^(٥).

وقد كان للمماليك دور كبير في الدفاع عن الإسلام وحماية حدود الدولة الإسلامية وإنجازات إيجابية ساهمت في تماسك المجتمع وقوته، لكن غلبت على جهازهم الإداري والعسكري سلبيات ساعدت في سقوطهم^(٦).

(١) انظر السابق/ ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ج ٣ / ٥٢١.

(٣) السابق ج ٣ / ٣٣١، ذكر من مات في سنة ٨٢٧ هـ من الأعيان.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ج ٢ / ص ٢٧٢.

(٥) انظر شفيق جاسر: "المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام" / ١١٤ - ١٢٣، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٠٩ هـ، والعوضي: مقدمة تحقيق فاضحة الملحدون وناصحة الموحدين للعلاء البخاري ج ١ (الدراسة) / ص ٥، من رسالة ماجستير لمحمد بن إبراهيم العوضي.

(٦) انظر شفيق جاسر: المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين في الشام / ١٢٥ - ١٢٨، ١٣٣ - ١٣٨.